اصلاح سريع ، ولا ينتج ذلك عن اصدار عدد ممتاز يقرؤه بعض ثم بانقطاع الكلام في شأنه يهمل وينسى ، ولهذا فقد اخترنا اجزاء متتابعة على حسب ما يبلغنا من بحوث في الموضوع وفي مثله يجب استمرار الحديث والكتابة حتى يجعل تعلق الرأي العام والحكومة بالاصلاح ونصل في شأنه بهذه الطريقة طريقة المداومة الى نتيجة ، ثم ان هذا الموضوع يحتاج الى كثير من الاناة وطول الروية ومداولة آراء العاقلين ومناقشات المفكرين ، ونحن اولاء نفسح لهم المجال للاخذ والرد رغبة في خدمة هذه الجامعة لتسترجع مكانتها القديمة التي كان يضرب بها المثل في القوة والنشاط والازدهار العلمي ، ونؤكد للقراء والكاتبين اننا لا نريد مناقشات عادية يمليها المرض ويوحي بها الغرض ويدور بذلك جدل لا ينتهي وانما حسبه أن يثير الضغائن والاحقاد ، وهذا ما نريد أن يطرحه جانباً الكاتبون لان ذلك لا يصلح وسيلة للاصلاح ولا يقرب من الهدف الذي نرمي اليه .

منظر داخل القرويين

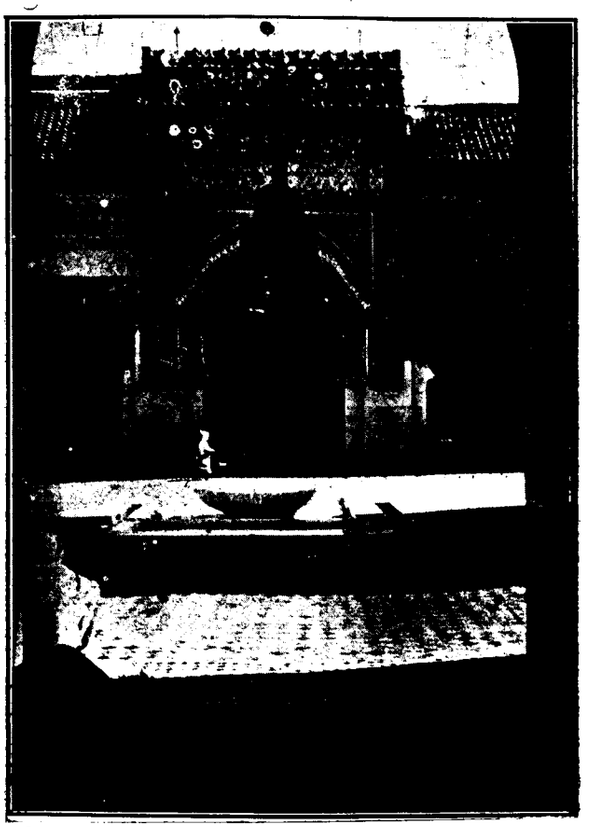

منظر صحن القرويين

سالف جامعة القرويين

أسس الامام المولى إدريس بن إدريس عاصمة ملكه فاساً على ضفتي وادي الجواهر سنة ١٩٢ وخصص الضفة الشرقية منها بجالية الاندلس والضفة الغربية بجالية القيروان وأسس لكل جالية جامعها للاولى جامع الاشياخ وللثانية جامع الشرفاء ، وأخذت المدينة تتسع والمسجدان يغصان بالمصلين على عهده وعهد بنيه من بعده وعظم شأن المدينة خصوصاً على عهد حفيده الامير يحي بن محمد واصبح السكان في حاجة الى توسيع المساجد وتكثير عددها ، فقامت بهذا العمل بناحية القرويين امرأة اسمها فاطمة الفهرية ، أسست مسجد القرويين من مالها الحلال قاصدة بذلك القرب والاخلاص في عملها وذلك سنة ٢٤٥ فاكرم به من بنيان اسس على التقوى ، كما أسست اختها جامع الاندلس فنسخ الاول جامع الشرفاء الذي هو الضريح الادريسي الآن

ونقلت اليه خطبته الى أن أعادها له ثانياً السلطان المولى اسماعيل العلوي ونسخ الثاني جامع الاشياخ وصار هذا مقبرة للشرفاء ولا زال الى الآن كذلك .

ثم أخذت دول المغرب بعد توسع دائرة مسجد القرويين توسيعاً أصبح به مسجد المدينة الجامع ، هذا من جهة كونه مسجد عبادة واقامة صلاة ، أما من جهة كونه جامعة علم ومعهد دراسة فاننا لا نشك في كونه من يوم اسس اسس لذلك أيضاً إذ العلم نفسه عبادة في نظر الاسلام ، ولا انفكاك للعلم عن انواع العبادات في نظر المسلمين ، ومن قواعد الاسلام البديهية : لا يعبد الله الا بالعلم ، فالمسجد في الاسلام يؤسس للمصلي والمتعلم سواء ، وهذا مسجد النبي صلى الله عليه كانت تقام به العبادات ويحلق فيه الصحابة حول النبي يتعلمون منه وحلق بعده المسلمون حول الصحابة فيه اقتداء به ، فكان مسجد النبي صلى الله عليه أول معهد علمي في الاسلام فكذلك كان جامع القرويين بيت عبادة ودراسة معاً ولا زال كذلك .

ولا نقول انه أول معهد علمي بالمغرب اذ نجد ان الفاتحين الاولين لهذه البلاد كانت لهم مساجد للصلاة والتعليم ، وهذا طارق بن زياد كان معه الفقهاء والقراء لتعليم البربر القرآن والفقه بطنجة ولا يكون ذلك الا بالمسجد ولا شك أن مسجد وليلي كان كذلك قبل بناء مدينة فاس مسجد علم وكذلك مساجد فاس قبل بناء القرويين ، ولكن هذه المساجد لم يبق الا أثر بعضها ولم تدم الدراسة فيها الا زمناً قصيراً ، على اننا نقول إن القرويين مع ذلك اقدم كليات العالم لا خصوص المغرب أي أنها هي التي بقيت دون سواها محافظة على مركزها العلمي منذ أزيد من الف سنة نظاماً متصلا ، فهي أقدم ما بقي الى الآن من كليات العالم فيما استقراه كثير من البحاثين وتخلص من زبدة مشاجرات قلمية عنيفة فهي أقدم كليات العالم النظامية الموجودة الان .

كانت القرويين ككل كليات العالم قديماً تتلقى فيها الدروس العلمية بدون نظام خاص تسير عليه ولكن كانت القرويين في طالعة الكليات التي عرفت النظام واصبحت منذ أبعد الازمنة محط انظار طلاب العلم بافريقيا واوربا ينسلون اليها من كل حدب (وفي مقدمة الاوربيين البابا سلفستر) يتلقون فيها العلوم الدينية والنظرية سواء ، وبنيت لها المدارس الداخلية لمأوى هؤلاء الوراد وأقدم ما وقفنا عليه من ذلك مدرسة الصابرين التي أسسها يوسف بن تاشفين اللمتوني في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ذكرها عبد السلام بن الخياط القادري المؤرخ في « تحفة الاخوان في شرفاء وزان » لما ذكر احد الصالحين وقال انه نزل بمدرسة بومدين التي برأس القليعة بكدية البراطيل وقد أدركها القادري هذا وأدرك بعض احباسها وكانت تسمى على عهده (أي اواسط القرن الثاني عشر) بمدرسة بومدين ولا زالت آثارها الى الآن ومن الجائز انها ليست أول مدرسة هناك .

وقد استمرت القرويين في نشاط علمي متزايد على عهد الادارسة وعلى عهد دول المغرب بعدهم وقد أكمل المرابطون شكلها على ما هي عليه الآن وبنوا المدرسة المذكورة ولعلهم بنوا غيرها لما رأوا إقبال الغرباء على الكرع من حياض القرويين الثجاجة فأنجبت العلماء الفطاحل ثم لما جاء دور الموحدين أقبلوا باعتنائهم العظيم على هذه الجامعة وظهر فيها على عهدهم من كبار العلماء ما يبيض وجه تاريخ العلم بهذه البلاد وأصبحت كفة العلم تتعادل اذ ذاك بين القرويين وجامعات الاندلس كيف والمغرب صار مسيطراً على الاندلس فكيف يرضى أن يكون دونها؟

وقد أسس الموحدون مدارس في أطراف المغرب لا زالت منها مدرسة سلا قائمة الاثر فمن أبعد البعيد أن يغفلوا تأسيس أمثال ذلك بفاس كعبة العلم وحرمه المكين وإنما ظني أن ذلك اندثر أو قام مقامه غيره في الزمن الذي بعدهم .

وبعد هذه الدولة آلت عاصمة الملك الى فاس باستقرار بني مرين بها ، وكان انتصار بني مرين الزناتيين على المصامدة الموحدين في أعين المغاربة عنوان انتصار السنة على الابتداع اذ قام بنو مرين بنصرة مذهب مالك الذي كان يقتدي به المغاربة قبل الموحدين ومحو مذهب الظاهرية الذي كان الموحدون الزموا الناس به وسموه اجتهاداً فذهبت هذه الخطة ببني مرين الي تشييد المدارس وتعديدها ابتكارا أو احياء لما اندثر قبلهم فشيدوا المدارس الهائلة وفتحوها في وجوه طلبة الآفاق ليكون أثرها عاماً واستقبلوهم فيها على نفقة الحكومة أكلاً ونوماً وكسوة .

هذا هو الداعي الاول لتعديد المدارس أما الداعي الاخر فهو نشر العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية وبقية العلوم التي كانت منتشرة بالاندلس وفي المغرب وصارت عقودها تنتثر بانتثار عقود مدن الاندلس وسقوطها بيد الاصبان والبرتقال ، وحيث لم يقدر بنو مرين على حفظ مدن الاندلس ومدنيتها بالسيف حفظوا تراثها بالمدارس ، وهناك داع ثالث وهو ان مذهب التصوف أخذ على ذلك العهد ينتشر بالاندلس ويتسرب الى المغرب مغتنما ضعف شوكة الموحدين الذين كانوا ماسكين بخناقه لبث زواياه وتقوية نفوذها بالبلاد ، ولم تجد تلك الزوايا أقوى لنشر نفوذها من بث العلم ، وهو المظهر الاكيد الذي ظهرت به بادئ بدء ، فشيدت كل زاوية مدرسة علمية بجانبها للتعليم والانفاق على الطلبة ، وقامت بنصرة هذه الحركة عائلات شريفة تستعملها لاسترجاع نفوذها الروحي بالبلاد المغربية ، ومن بينها اتباع الطريقة المشيشية الادريسية وغيرها ، وكان التعلم في مدارس هذه الزوايا لا يدخل طبعاً تحت رقابة الحكومة فكان ذلك من الدواعي المؤكدة التي حملت الحكومة على تكثير عدد هذه المدارس فى عاصمتها على الاخص وتحت رقابتها ، ورغبت في الانخراط بها بكل ما أمكنها من التوسيع في النفقة على الطلاب وتوسيع نطاق العلم ، فأكسدت بذلك سوق مدارس الزوايا وجلبت تحت قبضتها أكثر ما يمكن من الفقهاء لتعادل بذلك كفة المتصوفة ، وكذلك فعلت في جل مدن مملكتها الواسعة الممتدة من حدود السودان الى حدود مصر والتي ورثتها عن الموحدين .

وأول من أخذ في تشييد هذه المدارس في هذه الدولة يعقوب بن عبد الحق شيد مدرسة الصفارين وكانت تعرف لذلك العهد بمدرسة الحلفاويين قريباً من جامع القرويين ، ثم بنى أبو سعيد مدرسة المدينة البيضاء فاس الجديد ومدرسة العطارين وأبدع فيها من الصنائع ما شاءه رقي دولته ورفاهية مملكته ، وبنى ابنه أبو الحسن أيام ولايته للعهد مدرسة الصهريج بلصق جامع الاندلس الذي صيره معهداً فرعياً عن جامع القرويين وبجانبها مدرسة السبعيين خاصة بقراء الروايات القرآنية السبع ، ثم بنى أيام ولايته المدرسة المصباحية في جملة المدارس العديدة التي شيدها في أطراف البلاد ممتدة كمجرة نجوم رصعت ارض أفريقيا من أقصاها الى اقصاها فمدراسه بمراكش وآسفي وسلا والقصر الكبير وطنجة وفاس ومكناس وتازة وتلمسان والجزائر وتونس حيث بنت بنته مدرسة العطارين ، ثم شيد أبو عنان مدرسته المعروفة باسمه بطالعة فاس وهي أضخم مدارس فاس وأوسعها وأكثرها تنميقاً واتقان صنعة ،

وجعلوا جميعاً لهذه المدارس من الجرايات ما هو معلوم في التاريخ وأوقفوا عليها من الرباع المغلة والبلادات الخصبة ما خلدوا ذكره منقوشاً في رخامات ملصقة بحيطانها .

هذه هي المدارس التي كانت القرويين زاهرة بها ايام بني مرين وكانت لها انظمة قيمة اشار لها كثير من المؤرخين وبالاخص الوزان الفاسي ، وربما كان بعضها مختصاً بدراسة بعض العلوم كما أن بعض العلماء كان مختصاً ببعض المدارس درساً ورقابة .

ثم تأخرت عمارة هذه المدارس بانحلال الدولة المرينية واغارة بعض متأخريهم على احباسها ويذكر الوزان الفاسي ان أبا سعيد الاخير اغار على معظم هذه الاوقاف ولم يبق منها الا الشيء اليسير وانما بعض اهالي فاس تمادى على اعانة الطلبة الافاقيين من اموالهم احتساباً لله وتشجيعاً على طلب العلم (وقد بسطنا ذلك في ترجمته[1]) ولم ترل تلك شنشنة طيبة فيهم الى الآن اذ كثير من اغنيائهم بل وحتى متوسطي الحال منهم يجعلون مونة طعامية لبعض الطلبة يأخذونها مما ياكل رب المنزل ويقومون بتنظيف ثيابهم وربما جعلوا لهم صلة جارية .

وبسبب هذا الضعف المادي الذي اعترى نفقات المدارس وانحلال الدولة المرينية اخذت الزوايا تسترد نفوذها وتفتح ابواب مدارسها ولم يقف امامها الا انفاق الافراد على طلبة العلم غيرة على مجد بلادهم العلمي ووجود زوايا اخرى داخل فاس اخذت توطد مركزها وتنافس الزوايا الخارجية بنشر العلم والانفاق على الطلبة وذلك مع تزايد هجرة الاندلسيين المغلوبين على بلادهم لفاس دار المدنية والعلم ووارثة مجد الاندلس حاملين معهم علومهم وآدابهم اليها.

فلذا وذاك بقي الامر بين المد والجزر طيلة ايام بني وطاس والسعديين حتى جاءت الدولة العلوية الشريفة وانتصبت بعاصمتها فاس ، فتظاهرت بالعداء لاولائك الزوايا الخارجية التي وقفت عقبة في سبيل قيامها وبالولاء لفاس ولزاوياها وجامعتها التي قامت بنصرتها ، فاستفادت جامعة القرويين من ذلك تعضيداً اكيداً من جانب الدولة القائمة ولا سيما بعد تغلب الدولة على تلك الزوايا والقضاء عليها ، ومن بينها الزاوية الدلائية العظيمة ثم زاوية الشرادي بعدها ، وبذلك عادت للمدارس القروية عمارتها وغصت بالطلبة الذين كانوا يقصدون مدارس الزوايا بل وحتى بمدرسي تلك الزوايا انفسهم وفي مقدمتهم أبو علي اليوسي .

وشيد المولى الرشيد مدرسة الشراطين الهائلة بجوار القرويين لاستقبال الطلبة المتزايدين ، كما شيد المولى محمد ابن عبد الله مدرسة باب مجيسة ، واصلح المولى سليمان مدرسة الوادي وبنى زاوية الفاسيين وهي من جملة مدارس العلم بفاس وهناك زوايا متفرقة لم تكن الا مأوى للطلبة تجدها بكل حومة من حومات فاس يأوي اليها طلاب العلم الغرباء ويتعيشون من جرايات اهل المدينة وبذلك حافظ هؤلاء على مجد بلدهم العلمي وبقيت رغم سائر الظروف عاصمة المفكرين والعلماء والطبقة الراقية في المغرب .

ومما يشاع على الالسنة ان فندق اللبادين القريب من فندق البركة والذي صار بنكاً مخزنياً بعد خرابه كان مدرسة ثم صار فندقاً وما كان فيه من أثر الزخرفة في خشبه وسقوفه التي شاهدها من اخبرنا دال على أن ذلك اذ ذاك لا يكون في فندق الدواب ، وهكذا يظن البعض ان فندق التطاونيين كان مدرسة ايضاً وغيرهما من الفنادق بفاس كانت مدارس للطلبة ثم آلت الى ما آلت اليه ولعل مصلحة الآثار تأتينا عن قريب بما يثبت ذلك أو ينفيه ، وكل ذلك كان بالنسبة للقرويين اقساماً داخلية ولم تلبث

(1) حياة الوزان الفاسي Léon L'Africain